الفصل الأول

المرأة في الإسلام وفي بناء الرّجال

البحث الأول:

المرأة في ظل التّشريع الإسلامي[1]

التّنويع والتّكامل في منهج الله تعالى:

إنّ الإسلام يستهدف في تشريعاته تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره، لا لحساب الرّجال، ولا لحساب النساء! ولكن لحساب «الإنسان» ولحساب «المجتمع المسلم» ولحساب الخُلُق والصلاح والخير في إطلاقه وعمومه، وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب.

إنّ المنهج الإسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف، وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنّساء. والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة، وأودعت كل منهما خصائصه المميزة؛ لتنوط بكل منهما وظائف معيّنة... لا لحسابه الخاص، ولا لحساب جنس منهما بذاته، ولكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التي تقوم وتنتظم، وتستوفي خصائصها، وتحقيق غايتها - من خلافة الإنسان في الأرض، وعبادة الله بهذه الخلافة - عن طريق هذا التّنوّع بين الجنين، والتّنوع في الخصائص، والتّنوّع في الوظائف، وعن طريق تنوع الخصائص، وتنوع الوظائف ينشأ تنوع التّكاليف، وتنوع الأنصبة، وتنوع المراكز، لحساب تلك الشركة الكبرى والمؤسسة العظمى المسماة بالحياة الإنسانية.

---

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فائز، ص: ٣٣ - ٤٨، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

obeikandl.com

وحين يُدرَّسُ المنهجُ الإسلامي كلُّه ابتداءً، ثم يُدرَّسُ الجانبُ الخاص منه بالارتباطات بين شطري النّفس الواحدة، لا يبقى مجال للجدل الذي يملأ حياة الفارغين والفارغات في هذه الأيام، ويطغى أحياناً على الجادين والجادات بحكم الضجيج العام.

إنّ عبث تصوير الموقف كما لو كان معركة حادّة بين الجنسين، تسجل فيه المواقف والانتصارات، ولا يرتفع على هذا العبث محاولة بعض الكتّاب الجادين تنقصّ «المرأة» وثلبها، وإلصاق كل شائنة بها، سواء كان ذلك باسم الإسلام أو باسم البحث والتّحليل، فالمسألة ليست معركة على الإطلاق، إنّما هي تنويع وتوزيع وتكامل، وعدل بعد ذلك كامل في منهج الله تعالى!!. يجوز أن تكون هناك معركة في المجتمعات الجاهلية، التي تُنشىء أنظمتها من تلقاء نفسها؛ وفق آرائها وهواها ومصالحها الظاهرة القريبة، أو مصالح طبقات غالبة فيها، أو بيوت، أو أفراد؟!. ومن ثم تنتقص من حقوق المرأة لأسباب من الجهالة بالإنسان كله، وبوظيفة الجنسين في الحياة، أو لأسباب من المصالح الاقتصادية في حرمان المرأة العاملة من مثل أجر الرجل العامل في نفس مهنتها، أو في توزيع الميراث، أو حقوق التّصرف في المال - كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية الحديثة.

فأمّا في المنهج الإسلامي فلا: لا ظل للمعركة، ولا معنى للتنافس على أعراض الدنيا، ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل، ومحاولة النّيل من أحدهما وثلبه، وتتبع نقائصه؟!. ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التّكليف والوظائف، ولا آثار له في التّنويع في الاختصاصات والمراكز... فكل ذلك عبث من ناحية وسوء فهم للمنهج الإسلامي ولحقيقة وظيفة الجنسين من ناحية.

وننظر في أمر الجهاد والاستشهاد ونصيب المرأة منه ومن ثوابه، وهو ما كان يشغل بال وفكر الصالحات من النساء في الجيل الصالح، الذي يتجه بكلّيّته إلى الآخرة؛ وهو يقوم بشؤون هذه الدنيا، وفي أمر الإرث ونصيب الذكر

والأنثى منه، وقد كان يشغل بعض الرجال والنساء قديماً، وما يزال هو وأمثاله يشغل رجالاً ونساءً في هذه الأيام.

إنّ الله لم يكتب على المرأة الجهاد ولم يحرِّمه عليها؛ ولم يمنعها منه - حين تكون هناك حاجة إليها، لا يسدها الرجال - وقد شهدت المغازي الإسلامية آحاداً من النساء - مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزْوَاد - وكان ذلك على قلة وندرة بحسب الحاجة والضرورة؛ ولم يكن هو القاعدة، وعلى أية حال، فإنّ الله لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجال.

إنّ الجهاد لم يكتب على المرأة، لأنّها تلد الرجال الذين يُجاهدون، وهي مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها العضوي والنفسي؛ ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء!! وهي في - هذا الحقل - أقدر وأنفع. هي أقدر لأنّ كل خليّة في تكوينها معدّة من النّاحية العضوية والنّاحية النفسية لهذا العمل؛ وليست المسألة في هذا مسألة التكوين العضوي الظاهر؛ بل هي - وعلى وجه التحديد - كل خلية منذ تلقيح البُويضة؛ وتقدير أن تكون أنثى أو ذكراً من لدن الخالق سبحانه، ثم يلي ذلك تلك الظواهر العضوية، والظواهر النّفسية الكبرى، وهي أنفع - بالنّظر الواسع إلى مصلحة الأمّة على المدى الطويل - فالحرب حينَ تحصدُ الرجالَ وتستبقي الإناثَ؛ تدع للأمّة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ.

والأمر ليس كذلك حين تحصدُ النّساء والرجال، أو حتى حينَ تحصد النساء وتستبقي الرجال! فرجل واحد - في النظام الإسلامي - وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصه وإمكانياته - يمكن أن يجعل نساءً أربعاً ينتجن، ويملأن الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان.

ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال.

وليس ذلك إلّا باباً واحداً من أبواب الحكمة الإلٰهية في إعفاء المرأة من فريضة الجهاد والقتال، ووراءه أبواب شتّى في أخلاق المجتمع وطبيعة تكوينه، واستبقاء الخصائص الأساسية لكلا الجنسين. وأمّا الأجر والثواب، فقد طمأن

الله الرّجالَ والنّساءَ عليه، فحسب كل إنسان أن يُحسن فيما وُكِّل إليه ليبلغ مرتبة الإحسان عند الله على الإطلاق.

والأمر في الميراث كذلك، ففي الوهلة الأولى يبدو أن هناك إيثاراً للرجل في قاعدة: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ولكن هذه النظرة السطحية لا تفتأ أن تكشف عن وحدة متكاملة في أوضاع الرّجل والمرأة وتكاليفهما؛ فالغُنْم بالغُرْم، قاعدة ثابتة متكاملة في المنهج الإسلامي فالرجل يؤدي للمرأة المخطوبة صداقها ابتداء ولا تُؤدي له صداقاً.

والرجل يُنفق عليها وعلى أولادها منه، وهي معفاة من هذا التّكليف، ولو كان لها مال خاص، وأقل ما يصيب الرجل من هذا التكليف أن يُحبس فيه إذا ماطل!!!. والرجل عليه في الديات والأرش - أي التّعويض عن الجراحات - متكافلاً مع الأسرة، والمرأة منها معفاة. والرجل عليه في النفقة على المُعْسرين والعاجزين والعواجز عن الكسب في الأسرة، الأقرب فالأقرب. والمرأةُ معفاة من فريضة التكافل العائلي العام، حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانته عند افتراقهما في المعيشة، أو عند الطلاق، يتحملها الرجل، ويُؤديها لها كنفقتها هي سواء بسواء، فهو نظام متكامل، توزيع التبعات فيه هو الذي يُحدّد توزيع الميراث، ونصيب الرجل من التّبعات أثقل من نصيبه في الميراث. ومنظور في هذا إلى طبيعته وقدرته على الكسب، وإلى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة، لتقوم على حراسة الرصيد البشري الثمين، الذي لا يقوّم بمال، ولا يعدله إنتاج أية سلعة أو أية خدمة أخرى للصالح العام.

أمّا أمر شهادة النساء، فقد يسّر التّشريع الإسلامي فاستدعى النساء للشهادة: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[1].

وهو إنّما دعا الرجال لأنّهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السوي، الذي لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش، فتجور بذلك على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية وهي الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل، في مقابل لقيمات أو دُرَيْهمات تنالها من العمل، كما تضطر إلى ذلك المرأة في المجتمع النّكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم! فأمّا حينَ لا يوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان، ولكن لماذا امرأتان؟ إنّ النص لا يدعنا نحدس! ففي مجال التشريع يكون كل نص محدداً واضحاً معللاً: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومعنى الضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة: فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التّعاقد، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابساته، ومن ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء، فتذكّر الأخرى بالتّعاون معاً على تذكر ملابسات الموضوع كله.

وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية، فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعي مقابلاً نفسياً في المرأة حتماً، تستدعي أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لا ترجع فيهما إلى التفكير البطيء.

وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة. وهذه الطبيعة لا تتجزأ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعُها - حين تكون امرأة سويّةً - بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيحاء. ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تُذكّر إحداهما الأخرى - إذا انحرفت مع أي انفعال - فتتذكر وتفيء إلى الوقائع المجردة.

وهكذا نجد معالم التّوازن الشّامل، والتّقدير الدّقيق في المنهج الإسلامي الحكيم، الذي شرعه الحكيمُ العليم.

ونسجل هنا ما منحه الإسلام للمرأة في هذا النّص من حق الملكيّة الفردية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

وهو الحق الذي ظلّت الجاهلية الحديثة - التي تزعم أنّها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنحه لها منهج آخر - تتحيَّفه؛ فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور.

وبعضها يجعل إذن الولي ضرورياً لتوقيع أي تعاقد للمرأة بشأن المال؛ ويجعل إذن الزّوج ضرورياً لكل تصرف مالي من الزّوجة، في مالها الخاص! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة؛ وما نشأ عنها من فساد في نظام المرأة كلّه، وفي نظام الأسرة، وفي الجوّ الأخلاقي العام.

فأمّا الإسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء؛ وبدون طلب منها، وبدون ثورة، وبدون جمعيات نسوية وبدون عضوية برلمان!! منحها هذا الحق تمشياً مع نظرته العامة إلى تكريم الإنسان جملة؛ وإلى تكريم شقي النّفس الواحدة؛ وإلى إقامة نظامه الاجتماعي كله على أساس الأسرة؛ وإلى إحاطة جو الأسرة بالود والمحبّة والضّمانات لكل فرد فيها على السّواء.

ومن هنا كانت المساواة في حق التّملك وحق الكسب بينَ الرّجال والنّساء من ناحية المبدأ العام. وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافي في كتاب «حقوق الإنسان» لفتة دقيقة إلى وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الدول الغربية جاء فيه:

«وقد سوّى الإسلام كذلك بين الرّجل والمرأة أمام القانون، وفي جميع الحقوق المدنية سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة.

فالزّواج في الإسلام يختلف عن الزّواج في معظم أمم الغرب المسيحي، في أنّه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية، ولا أهليتها في التّعاقد، ولا حقّها في التّملك.

بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظةً باسمها واسم أسرتها، وبكامل حقوقها المدنية؛ وبأهليتها في تحمّل الالتزامات، وإجراء مختلف العقود، من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية؛ وما إلى ذلك؛ ومحتفظةً بحقّها في التّملك تملكاً مستقلًّا عن غيرها. فللمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته.

ولا يجوز للزّوج أن يأخذ شيئاً من مالها - قلّ ذلك أو كثر - قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[1].

وقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾[2].

وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً ممّا سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصلي، إلا أن يكون هذا أو ذاك برضاها وعن طيب نفس منها.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[3]، ولا يحلّ للزّوج كذلك أن يتصرّف في شيء من أموالِها إلّا إذا أذنت له بذلك، أو وكّلتْهُ في إجراء عقد بالنّيابة عنها. وفي هذه الحالة يجوز أن تلغي وكالتها، وتوكل غيره إذا شاءت.

وفي التشريع الإسلامي يشارك النساءُ الرجال في العبادات الاجتماعية كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين، فتشرع لهنّ ولكن لا تجب عليهنّ تخفيفاً عليهنّ، وصحَّ أنّ النّبيّ ﷺ أذِنَ للحيّض منهنّ بحضور اجتماع العيد في المصلَّى دون صلاته، وعبادة الحج الاجتماعية مفروضة عليهن كالرجال، ويحرم عليهنّ وضع النقاب على وجوههنّ ولبس القفازين في أيديهن مدة الإحرام، وقد شرع لهنّ من الأمور الاجتماعية والسياسية ما هو أكثر من ذلك. قال الله تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين فيدخل فيها ولاية الأخوة والمودّة والتّعاون المالي والاجتماعي، وولاية النّصرة الحربية والسّياسية.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٢٠ - ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

ومن حقوق المرأة السّياسية في الإسلام أنّها إذا أجارتْ أو أمّنتْ أحداً من الأعداء المحاربين نَفُذ ذلك، فقد قالت أم هانىء للنّبيّ ﷺ وهي بنتُ عمّه أبي طالب - يوم فتح مكة - إنني أجرت رجلين من أحمائي. فقال ﷺ: «**قدْ أجرنا من أجرت يا أم هانىء**»(١).

وهذا حديث صحيح متفق عليه. وفي بعض الروايات أنّها أجارت رجلاً فأراد أخوها عليّ كرّم الله وجهه قتله فشكته إلى النّبيّ ﷺ فأشكاها وأجاز جوراها.

وفي حديث حسن عند التّرمذي عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**إن المرأة لتأخذ للقوم**» يعني تجير للمسلمين.

وفي معناه عن عائشة أم المؤمنين قالت: «إنْ كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز».

ونقل ابن المنذر أنّ المسلمين أجمعوا على صحة إجارة المرأة وأمانها.

وهذا من أظهر البراهين على عظيم مكانة المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي.

البحث الثاني:

دور المرأة في الإسلام

منذُ اللحظة الأولى لانبثاق نور الإسلام ظهر للعالم جلياً دور المرأة الذي كان له الأثر البالغ في تأييد هذا الدِّين ونصرته، فما كادت المرأة تسمع نداء الإسلام حتى استجابت سامعة ومصدقة بعدما انطلقت من سجنها، وآمنت بهذا الدِّين الذي جعلها الله فيه من شقائق الرجال، وباستعراضنا للسيرة النّبويّة خاصّة

(١) صحيح البخاري برقم ٣٥٧/ وصحيح مسلم برقم ٣٣٦.

والتّاريخ الإسلامي عامّة نجد السّيدة خديجة أوّلَ من آمنَ من النّساء بمحمّدٍ عليه الصّلاة والسّلام، ونصرته في دعوته حتى سار الإسلام من فوزٍ إلى فوزٍ! فكانت أول من قاسم الرسول أموالها قبل أن يحذو حذوها الأنصار، وأول من شجعه بعد روعة الوحي وأعانة بالعطف والرأي والمال، كما أنّ أوّلَ شهيدة في الإسلام هي سميّة أم عمار بن ياسر، لاقتْ في سبيل الجَهْرِ بدينها والدعوة إليه صنوفَ العذاب، فلم يزدها إلّا ثباتاً وإيماناً، واستشهدت مؤمنة صادقة محتسبة.

كما أن كثيراً من أبطال الإسلام لم يتم إسلامهم إلّا على يد امرأة كسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ، الذي تسببت في إسلامه مولاة عبد الله بن جدعان، وكذلك عمر بن الخطاب ﷺ الخليفة الثّاني اعتنق الإسلام على يَدِ أختِهِ فاطمة، وأبي طلحة الذي خطب أم سُليم بنت ملحان الأنصارية بعد وفاة زوجها فطلبتْ صداقها إسلامه، فأسلم على يديها وكثير من الصحابة.

كما أن في التاريخ الإسلامي كثيراً من النّساء دَعَوْنَ للإسلام وأمَرْن بالمعروف ونهين عن المنكر، فهذه أم شريك القرشية العامرية التي كانت تدخل على النّساء تدعوهن إلى الإسلام وترغبهن فيه حتى انكشف أمرها لأهل مكة فأوثقوها وأذاقوها سوء العذاب.

وكانت سمرة بنت نهيك التي كانت تُؤدّب النّساء وبيدها سوط، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر! ثم خولة بنت مالك التي لقيت عمر بن الخطاب في الطريق فسلم عليها فردت عليه السلام وقالت: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تروع الصبيان بعصاك فلم تمض إلّا أيام حتى سُميتَ عمر، ثم لم تذهب حتى سميت أمير المؤمنين، فاتّقُ الله في الرعية واعلمْ أنّ من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت! قال الجارود: قد كثّرتِ على أمير المؤمنين أيَّتُها المرأة؟! فقال عمر: «دَعْهَا أمَا تعرفها؟ هذه خولة امرأة أوس بن الصّامت قدْ سمعَ الله قولها من فوق سبع سمٰوات، فعمر أحق أن يسمع لها».

وكُتب مغازي رسول الله ﷺ تضم بطولات النساء في الغزوات الإسلامية

بطولة لم نر لها مثيلاً، فهذه نُسيبة بنت كعب أم عُمارة التي خرجت لسقي المسلمين في غزوة أُحُد، فلمّا لحقت بالمسلمين الهزيمة النكراء رمت ما بيدها وأخذت سيفاً وخاضت غمار الحرب تدافع عن النّبيّ ﷺ، وجرحت فوهبت حياتها للموت لتبقى حياة الرسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام، واستعذبت الموت في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ودعا لها رسول الله ﷺ ولزوجها وولدها وقال عنها: «**ما نظرتُ يميناً أو شمالاً إلّا ورأيتُ أمَّ عُمارة** - يُخاطب ابنها - **لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان**»[1].

ولقد ثبت في التاريخ الإسلامي أنّ أمّ عطية غزتْ مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كانت تخلفهم في رحالهم وتصنع الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى.

وثبت في الصّحيحين أنّ عائشة زوج النّبيّ ﷺ كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرها إلى الجرحىٰ في غزوة أُحد، يسقينهم ويغسلن جراحهم، ولمّا جرح الرسول ﷺ تولتْ فاطمة غسل جرحه وتضميده.

وفي غزوة حُنين رُؤيت أمُّ سُليم ومعها خنجر فسألها النّبيّ ﷺ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذتُه إنْ دنا منّي أحد المشركين بقرتُ به بطنه.

وكذلك للنّساء عبر التاريخ الإسلامي مواقف جيدة في الأمور السّياسية، ولقد استشار الرسول ﷺ زوجه أمَّ سلمةَ حينما اختلفَ مع الصحابة وخالفُوهُ في أمره الذي أمرهم به من النّحر والهدي والحَلْقِ والإحلال. فأشارتْ عليه أنْ يخرج هو ولا يكلم أحداً ويصنع ذلك بنفسه أوّلاً، فلمّا فعل فلم يترددوا إلّا أن قاموا إلى هديهم فنحروه وأخذ بعضهم يحلقُ لبعض حتى كادوا يلتحمون من شدّة الزحام.

وهكذا استمرت المرأة المسلمة بشخصيتها المؤمنة الواثقة من نفسها حتى أصبحت تقف أمام الخلفاء موقف الجسارة دفاعاً عن حقوقها وتصحيحها للخطأ

(١) انظر أبو رضوان بن السنوسي، المرأة بين الحجاب والسفور، ص: ١٧.

فيها، خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة، وحثَّ النّاس على التّساهل في المهور، وأعلن أنّ من دفع لزوجته أكثر من مهر نساء النّبيّ ﷺ فسيأخذ الزائد إلى بيت المال!؟. فتقوم امرأةٌ على الملأ تردُّ عليه وتقول: «ما ذلكَ لكَ» قال: لِمَ؟ قالت: إنّ الله قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾[1]. فرجع عمر عن قوله وقال: «أخطأ عمرُ وأصابتِ امرأةٌ».

إلى وقتنا الحاضر نجد من النّساء من يتمتعن بحصافة العقل وسداد الرأي، ولهنّ الرأيُ والمشورةُ في جميع شؤون الحياة الاجتماعية ومساعدات لأزواجهنّ وكما يُقال: وراء كلِّ رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ.

إنّ المرأة المسلمة الصّادقة العاقلة المتّزنة تصنع العظماء من الرّجال.

البحث الثالث:

أثر المرأة في بناء الرجال

إنّ المرأة تقوم بدور خطير في حياة كل فرد، فإمّا أنْ تجعل منه عظيماً يُشيد النّاسُ بذكره وعظمته، وإمّا أن يكون خاملَ الذّكر لا يؤبه له؟.

فعلى قدر تربية المرأة وعظمة أخلاقها يكون البناء في الرّجال! وما العظماءُ الخالِدُو الذّكر إلّا أبناء جليلات القدر رفيعات المنزلة كريمات المنبت!!. ذلك أنّ الزّوجة والأم شريكة لزوجها وولدها في كرامتها، فإذا كان الزّوج أو الابن زعيماً فقد صارت لها الزعامة، وإذا أصبح أميراً فقد تقلّدت الإمارة، فالمرأة بزوجها وأمومتها قد ترتفع أحياناً إلى أعلى عليين، بل إلى ما لا يساميها فيه أعظم الرجال. ومَنْ من العَالَمِين لا يُكْرِمُ مريمَ من أجل ابنها المسيح عليه السلام!؟ أو يكرم آمنة من أجل محمّدٍ عليه الصّلاة والسّلام!؟ وقُلْ مثل ذلك عن تلك الأمّهات اللّواتي أنجبن الرّسلَ والأنبياء والعلماء والقادة والمصلحين

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.

والزعماء المخلصين، فكلهنّ كريمات مقدّسات ممجّدات بما خلفن من أبناءٍ وبنات.

وما من عظيم مهما سمَى قدرُهُ إلّا وهو ابن امرأةٍ شريفةٍ عظيمة!! وهو بحكم بنوّته لها مجبولٌ ومأمورٌ بطاعتها وحبّها، وقد يكون ممن ترتجف الملوك من حضرتهم وتفزع النّاس من هيبتهم؟.

وليس بمنقص من قدر المرأة أن تكون كرامتها ومجدها وشهرتها مستمدة بالتّبع من كرامة زوجها أو ابنها، إذْ أنّ لها نصيباً من ذلك المجد، فما من رجل متزوّج يمكن أن يرقى إلا ولزوجته نصيب فعّال فيما حقّقَهُ، وما من رجلٍ يمكن أن يفوز أو ينجح إلّا ولأمّهِ النّصيب الأكبر فيما وصل إليه، فهو ليس إلّا بضعة منها، والفرع لا يمكن أن يكون أكرم من الأصل ولا يمكن أن يحقق لنفسه شيئاً من الحياة فضلاً عن الرقي والتّطور إلّا عن سبيل ما يستمده من الأصل؟.

ولذلك فإن المطالع لسير العظماء يسترعي نظره اهتمام هؤلاء العظماء في إظهار فضل زوجاتهم عليهم، حتى ليقول بعضهم: إنّه مدين بكل شيء لزوجته، أو لما ورثه عن أُمِّهِ من صفات، وما زودته إيّاه من نصائح وتوجيهات.

فالمرأة ليست بالشيء القليل القدر؛ فإنّ من وكّله الله بابتناء الكون وإنشاء الأمم لا يكون قليل الشّأن، إلّا إنّما هي دعامة الكون، لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضتْ، فإن هي وهنت دونه أو تخاذلتْ عنه تهاوت عمده وتصدّعت جوانبه.

في قرن وبعض القرن وثب المسلمون وثبة ملؤوا بها الأرض قوة وبأساً وحكمةً وعدلاً وعلماً، فراضوا الأمم وهاضوا الممالك وركزوا ألويتهم في قلب آسيا وهامات أفريقيا وأطراف أوروبا، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوبُ وتقلّب بها الألسنة بعد أن كانوا قبائل بدو لا نظام ولا علم ولا شريعة؟!! ففي أيّ المدارس دَرَجُوا!؟ ومِنْ أيّ المعاهد تخرّجوا؟.

إنّما كانت خصائصهم وخيامهم ودورهم ومساجدهم معاهد ومدارس، وما شئت من مغارس حكمة وآداب وليَ أمْرها أمهات صدق أقامهنّ الله على غرسه ونشئه، واستخلفهنّ على صنائعه وائتمنهنّ على بناة ملكه وحماة حقّه ودعاة

خلقه، فكنّ أقوم خلفائه بواجبه، وأثبتهنّ على عهده، وأنهضهنّ بالفادح الشّديد من أمره.

لقد كان الله أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مخرجاً سيئاً أو ينبتهم منبتاً فاسداً، أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة، ثم يكل إليهم أشرف مطالب الحياة ويوردهم أسمى مقاصدها، ولو فعل لكان قد كلّفهم شططاً وجشمهم مُحالاً؛ لأنّ الأم من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فهي غذاء أرواحها، ومبعث عواطفها؛ فإن وهنتْ كان كل أولئك واهناً ضعيفاً!!.

ولقد قدمت الأم العربية المسلمة أروع الأمثلة في التّاريخ الإنساني، في الجهاد والتّضحية وعظيم الصبر عند البلاء والمِحن، فتلك هي الخنساء وقد رفعها التّاريخ وخلّد اسمها في صفحات الأمومة الغالية بما أخرجت على يديها من رجالٍ أفذاذٍ وأبطالٍ صناديد، فقدّمت أبناءَها الأربعةَ في معركة القادسية راضية النّفْسِ، قريرةَ العينِ، فكان ممّا أوصتْهُمْ به قولُها:

«يا بَنِيَّ، إنّكم أسلمتُمْ طائعين، وهاجرتُمْ مختارين، والله الذي لا إلٰه إلّا هو إنّكم لبنو رجلٍ واحدٍ، وامرأةٍ واحدةٍ، ما هجّنْتُ حسَبَكُم، وما غيّرتُ نسَبَكُم!؟ واعلمُوا أنّ الدّار الآخرةَ خيرٌ من الدّار الفانية، ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] فإذا رأيتم الحربَ فقد شمرتْ عن ساقيها، وجللت ناراً على أوراقها، فيمِّمُوا وطيسَها وجَالِدُوا رسيسها، تظفروا بالغُنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

فلمّا كشرت الحربُ عن نابها تدافعوا إليها وتوقعوا عليها، وقدَّمُوا أرواحهم فداءً لنصرة دين الله وإعلاءً لكلمته، فكانُوا عند ظنِّ أمّهم بهم حتى قُتِلُوا واحداً بعد واحد.

ولمّا وافتْهَا الأخبارُ باستشهادِهم لم تزدْ على أنْ قالت: الحمدُ لله الذي شرّفني بقتلهم جميعاً، وأرجو من الله أنْ يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

ولقد كان الرّجل وما يجاوز رأي أُمّه ولا يستشعر العَنَاءَ عن مشورتها ونهج سبيلها مهما تطاول به العمر وأمعنتْ برأيه التجارب. وحديث عبد الله بن الزبير وأمّهِ أسماء بنت أبي بكر آية بالغة ودليل كفيل بما نقول.

ذلك أنّ عبد الله لبث على إمرة المؤمنين، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثماني سنين، ثم أخذ عبد الملك بن مروان يُقارعه فانتقص منه العراق، ورماه بعد ذلك بالحجّاج بن يوسف، فأخذ يطوق بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوّقها ونصب المجانيق على الكعبة، وأهوى بالحجارة عليها وفي الكعبة يومئذٍ أسماء بنت أبي بكر. وكان عبد الله يُقاتل جُند الحجّاج مسنداً ظهره إلى الكعبة فيعيث فيهم، ويُروِّع أبطالهم، وليس حوله إلّا القوم الأقلّون عدداً، والحجاج بين ذلك كله يُرسل إليه يُمنيه الخير ويعده بالإمارة في ظل بني أُميّة لو أغمد سيفه وبسط للبيعة يده؟.

دخل عبد الله إثر ذلك على أمه فقال: يا أمّاه، خذلني النّاس حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلّا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النّهار، وقد أعطاني القوم ما أردتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: الله الله يا بني، إنْ كنتَ تعلم أنّك على حق تدعو إليه فامشِ عليه، ولا تُمكّن من رقبتِكَ غلمانَ بني أُميّة فيلعبوا بكَ!؟ وإنْ كنتَ أردت الدّنيا فبئس العبد أنتَ، أهلكتَ نفسك ومَنْ معك، وإن قلتَ إنّي كنتُ على حقٍّ فلمّا وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل إلّا حرراً ولا من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزّبير، والله لَضَرْبةٌ بالسّيف في عزٍّ أحبُّ إليَّ من ضربةِ السوط في ذُلٍّ.

فقال: يا أمّاه، أخافُ إنْ قتلني أهلُ الشّام أن يُمثّلُوا بي ويصلبُونِي؟! قالت: يا بُني! إن الشّاة لا يضرُّها السّلخُ بعد الذّبح، فامْضِ على بصيرتِكَ، واستعِنْ بالله، فقبَّلَ رأسَها، وقال لها: هذا والله رأيٌ، والذي قمتُ به داعياً إلى الله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله ﷻ أنْ تُهتَكَ مَحَارِمُهُ، ولكنّني أحببتُ أن أطّلعَ على رأيكِ، فيزيدني قوّةً وبصيرة مع قوتي وبصيرتي. ثم دنا من أمّه وقبّل يَدَها، فعانقتْهُ وقبّلتْهُ، ثم خرج وهو أثبتُ عزيمةً على الأخذ بالحق والانتصار له.

وقالت أمه بعد خروجه: اللهمّ إنّي سلمتُ فيه لأمرك، ورضيتُ فيه لأمرك، ورضيتُ فيه بما قضيتَ، فأثبني في عبد الله ثوابَ الصّابرين الشّاكرين[١].

ثم قال لأصحابه: احملُوا على بركةِ الله، وليُشْغِلْ كلٌّ منكم رجلاً، ولا يلهينّكم السّؤال عنّي فإنّي على الرّعيل الأوّل. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، وهنالك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه فأخذتْه منه رعدة، فدخل شعباً من شعاب مكة يستدمي، فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك، فقتلوه، وصلبَه الحجاج فأقام جثمانه على الجذع زماناً طويلةً، حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله أخذتْهُ أُمُّه فغسلتْهُ بعد أن ذهبوا برأسه، وذهب البلى بأوصالهِ!؟ ثم كفّنته وصلّتْ عليه ودفنتْهُ.

وذلك أمرُ ابن الزّبير ومقامه من أُمّهِ وعكوفه على رأيها ونزوله عند مشورتها حتى آخر ساعة من ساعاته وقد طعنَ يومئذ في السّبعين، وما له لا يكون كذلك؟ وهل ترى فيما رأيت خطلاً في الرأي أو زَلَلاً في القصد أو حياداً عن النّهج، أو عثرة في الواجب؟ وهل أعانت امرأة ولدها على التّضحية في نصرة الحق وبذل النّفس في حومة الشّرف بمثل ما أعانت أسماء ولدَها؟.

اللّهمّ إنّ تلك سرّ عظمة القوم وسبيل نهضتهم ومبعث قوّتهم وإليه مرجع استبسالهم واستماتتهم!.

وبعدُ فقدْ علمت ممّا سلف من القول أنّ المرأةَ المسلمةَ اجتمع لها من وسائل التّربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لأخرى ممّن سواها من إقرارٍ بحقّها، وإمعانٍ في احترامها ومماشاة في الرأي والعمل لها إلى غير مدى ولا غاية في ذلك كله.

كل أولئك إلى ما علمت من رجاحة في العقل، وسماحة في الرأي واستمكان من الفضيلة، وبلوغ إلى الغاية القصوى من جلال الدّين وفرط اليقين، ممّا جعلهنّ أعرف خلق الله بتكوين الرّجال والتّأثير فيهم والنّفاذ إلى قلوبهم وتثبيت دعائم الخُلُق العظيم بين جوانحهم وفي مسارب دمائهم.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، لابن منظور، ج ١٢/١٩٨ ، ١٩٩.

ومن أجل ذلك كان أبناء النّابهات الممتازات من النّساء أنبل وأفضل وأمثل من أبناء النّابهين الممتازين من الرّجال، حتى لا تكاد تقف على عظيم ممن رَاضُوا شماس الدّهر، وذلّت لهم نواحي الحادثات إلّا وهو ينزع بعرقه وخُلُقِهِ إلى أمٍّ عظيمةٍ، هؤلاء هُنّ الأمّهات اللاتي انبلج عنهنّ فجرُ الإسلام وسمتْ بهنّ عظمتُهُ وعظمتْ بقوتهنّ قوته، وعنهن وحدهن ذاعت مكارِمُهُ ورسمتْ قوائِمُهُ.

وهؤلاء هنّ خير أساتذة أنجبتهم الحياة فأنجبن خير الأبناء، فإن كان ممّا يعيب الرجل في عصرنا الحاضر أن يُقال عنه: إنّه تربية أُمِّهِ. فقد كان ذلك في عصور الإسلام الزّاهية وأيامه الخالية مهبط الشرف الحرّ والمجد الرفيع والعزّ المكين. فلا شك أنّ للمرأة خواص تجعل أثرها في تشييد صرح الحياة وتزيينه أقوى أثراً من الرّجال.

فبحكم وظيفتها الطبيعية في تكوّن الجنين هي التي تبرز للحياة الإنسان الحيّ كأنّما تقدمه من كيانها، فالمرأة هي المبدأ الظّاهر المباشر للحياة الإنسانية، قد يكون هذا المعنى هو الذي ذهب ببعض الأجيال السّالفة إلى عبادة النّساء، وتأنيث الآلهة!؟. وطبيعي أن يفيض قلب المرأة بالحبّ والحنان لهذا العالم الإنساني الذي تكاد تشعر بفطرتها أنّه ثمرة من ثمراتها، وأنّ حياته مستمدة من حياتها.

فالمرأةُ هي المنبع الفَيّاض لما في هذه الحياة الإنسانية من حب هو أساس النّظام والعدل والرحمة والسّعادة. تلك قيمة المرأة في الحياة كأم تُنجب الأطفال والأولاد والأبناء، وتُورِّثُ الفضائلَ من جيلٍ إلى جيلٍ، وتحفظ سلسلة الإنسانية كاملةً!! والحلقات متصلةَ الأجزاء!! تضمن للجنس البشري خُلُوداً على كرّ الدّهر ومرّ الأيّام، وبقاء ما أراد الله له البقاء.

فهذه صفحات مشرقة من تاريخ المسلمات المؤمنات الطّاهرات وأثرهنّ في صنع الرّجال...